

الأوصاف البهيجة لمدينة مكة المكرمة

عندما أصبح الشريف بركات شريفاً ، دخل إلى المدينة المكرمة وسط إحتفال عظيم . وجاء إلى الحرم الشريف ، وجلس عند الدرجة الثالثة ، أسفل منبر رسول الله ﷺ . وجاء جميع الأشراف ، والشرفاء ، والمشايخ ، وأهل الوفاء من الأئمة ، والخطباء ، والعلماء ، وجميع الأعيان الكبار ، وعلى العموم ؛ حضر الجميع ، الكبير والصغير ، إلى الحرم الشريف ، وبايعوا الشريف بركات . ونادى المنادون فى كل مدينة مكة باعطاء الأمان لخلق الله ، ومنح آمان آل عثمان لجميع خلق الله ؛ وبشروا الناس بأنهم سيكونون فى أسعد حال . واستمر الإحتفال ، والإبتهاج ثلاثة أيام ، وثلاث ليالي ، وزين كل الناس مساكنهم ، ومتاجرهم ، ومحلاتهم ، وطالب المنادون الأهالي بان يزبنوا دكاكينهم .. وما أن سمع الأهالي ذلك ، حتى ردّوا ﴿ العظيمة لله ﴾ وما هي إلا ساعات حتى تحولت المدينة ، بداية من الجامع الشريف والطرقات العامة إلى محفل يمج بالنشاط ، وتم تنظيف وتطهير الشوارع والطرقات ، وكل شخص من الاهالى حسب مقدرته ، قام بتزيين منزله .

وفتحوا أبوابهم ، وشرعوا فى زيارة بعضهم البعض ، وزيارة حجاج المسلمين وزين كل واحد من الأهالي باب بيته أو دكانه بأحلى أنواع الزينة ، وعلّقوا القناديل والشريات حتى تشعشت المدينة بالأضواء المتلئكة . وأشعلت آلاف القناديل والشموع ، والمصابيح ، والفوانيس فى جميع الأسواق السلطانية = الرئيسية . وعلقت آلاف ، بل مئات الآلاف من المشاعل ، والشمع الكافوري حتى تبددت ظلمة الليال ؛ وأصبح الليل مضيئاً كالنهار تماماً ... واستمرت الصحبة . كما يكون الحال فى ليلة القدر - حتى الصباح .. ولما كانت مدينة مكة مدينة منورة ، فأضحى نور على نور .. وقام كل أصحاب الحرف بتنظيف دكاكينهم .. وجملّوها بالمفارش والطنامس ، وأخذوا فى السمر والتسامر مع بعضهم البعض ، ومع أحياءهم .. وتبادلوا شتى أنواع المشروبات كالشربات ، والشاي ، والقشير ، والسحلب ، وقدموا المهلبية ، والقهوة . واللبن الخالص والعيران .^(١) .. وكانت هناك أمام بعض الدكاكين ، أو أمام بعض الخانات مطربون ، ومقرؤون ومضحكون .. وغوازي ،

(١) العيران : لبن خض يُضرب بالملح ، ويُشرب ، ويُقدم مع الطعام ويستحب فى فصل الصيف واشتداد الحرارة . لبن منزوع الدسم يضاف إليه الملح ويشرب بادرأ . « المترجم »

وفتيات عفيفات ، بأصواتهن الملائكية يتغنون بالموال الحزين .. أو بالقصائد الغزلية .. وترقص الراقصات والراقصون .. والكل يُطلق « الحى .. هو »^(١) . وتشمل المكان نغمة روحانية بحيث لا يتمالك الحضور نفسه عن التكبير وآرباب التجارة .. كان كل منهم يعرض ما لديه من بضائع رائجة .. وفى سوق لحسا = الاحساء ، سوق اللولي = « اللؤلؤ .. » كما يسمونه .. ويؤدى إليه طريق عام .. أو هو نفسه طريق عام .. سوق طويل المتاجر على الجانبين ، جميع دكاينه كشباك السمك ، قد نُسجت من شبك رقيق .. وتمتد على الطريق بمصلوبات جميلة .. والسوق كله مزين .. ومعروض فيه وعلى الطريق الرئيسي شتى أنواع الحرير الأخضر .. والقمحي = البني الفاتح واللون البحري أى الأزرق فى زرقة البحر .. كما تعرض القطيفة .

كما توجد فى دكاين بائعى الجواهر الألماس ، والياقوت اللعل = الأحمر والزمرد ، والفيروز = البيروز ، والعقيق ، واليمنى^(٢) والصمغ الجبلى وزبرجد عين الحور ، وعين السمك . وكل أنواع المجوهرات الغالية الثمن قد عرضها أصحاب المحلات فى عروض مبهجة ... حتى حوِّلت شمس مكة المشرقة إلى شمس مشعشة . ولما كانت أشعة شمس الدنيا تسقط عليها لم يكن يستطيع المرء أن ينظر إلى الأشعة المنبعثة عنها .. ولم يكن ليجرأ أن يفتح عينيه تجاهها .. وكانت العيون النرجسية تقف أمامها مبهورة ..

أما فى سوق العطارين ؛ حتى فى حالة عدم العبور ، فإن موارد العود ، والعنبر الحام ، والعود الملبس ، والمسك ، والكافور المسكي ، والسنبلى الهندي ، والسنبلى الخيطاى تفوح روائحها .. وتعبق المكان ويصبح رأس ، ودماع كل انسان معطر .. أما فى سوق السلقرى ؛ فإنك ترى الورد ، والفلى والسنبلى ، والصندل ، وماء الورد والعطر السلطانى ، والياسمين ، والبنفسج ، والحناء .. كلها تفوح منها الروائح التى تُعيد روح الشباب إلى الإنسان .

(١) أكبر الظن أن الرحالة يقصد حلقات الذكر ؛ بما كان يجرى فيها من انشاد دينى ، وذكر وتراتيل ، ويجتمع فيها ارباب الطرق الصوفية ، وفى حلقات الذكر كانوا يطلقون بشكل جماعى ، ومتكرر « الله .. هو .. الحى هو ... » المترجم
(٢) اليمنى : غطاء رأس . أو تاج يوضع على الرأس ، أو تلبسه العروسة فى ليلة الزفاف ، ويكون من القماش المطرز ، أو الذهب أو الفضة المشغولة ، والمنقوشة بالموثوقات اليمنية . وهو مشهور فى بلدان الجزيرة العربية . ويطلق أيضاً على حذاء الجملد حفيف ، مذهب الطرف الامامى ، ورقيق الحواف . « المترجم »

وما أن يفرغ جميع الحجاج من الطواف والسعي بين الصفا والمروة حتى يمكثوا بعض الوقت في واحد من هذه الدكاكين التي يُرحب أصحابها بهم قائلين « أهلاً .. وسهلاً .. » ويعظمونهم .. ولا بد أن ينثروا عليهم من ماء الورد ، والعطر ، والبخور المائي .. ولا بد أن يشعلوا الكثير والعديد من البخور ، والعنبر .. كما أنه من المعتاد أن ينثروا ماء الورد على الغادين والرائحين في الطريق العام أمام دكاكينهم .. وذلك لأن أمر معاش أهل مكة منوط بالحجاج .. كما أن حضرة جناب الشريف قد أصدر تعليماته ، وتنبهاته بحسن رعاية الحجاج .. لكل هذا يحرص أهل مكة على إرضاء الحجاج ، وجلب خاطرهم . خاصة وأن عدداً كبيراً من الحجاج كان قد قُتل داخل الحرم الشريف .. كما حدث نهب وإغارة على متاجر بعض التجار .. أما هذه السنة .. وفي داخل المدينة كان كل الناس يخرجون المشروبات ، والمأكولات تعبيراً عن المحبة ، وعرضاً للبيع ؛ وكان البيع والشراء ميسراً . كما أن كل يوم ؛ كانت تُطبخ في المطبخ الخليلي أنواع متعددة من الحلويات ؛ كالمهلبيات ، والزولابيات ، وسكر النبات والحلويات الحموية ، وألوان متعددة من الأطعمة النفيسة وكانت تُقدم للغريب ، وكل الغرباء لدفع الجوع عنهم .. كما كانت تُقدم أنواع معقولة من الأشربة المعروفة كشربات الورد والليمون ، والبنفسج ، والفراولة ، والتوت ، والحمص ، والصندل ، وكان الشرابات يُقدم من كل المنازل ، وكل الدكاكين لكل من يريد أن يشرب دون أن يُسال عن درهم أو دينار . وهكذا .. فإن آلاف آلاف المسلمين الذين جاءوا ليؤدوا هذه الفريضة تحت هذه القبة الزرقاء طاعة ، وطواعية منذ آمد بعيد ، وهم يسعدون بهذه التلبية .. وتطيب نفوسهم ويشعرون وكأنهم في الفردوس الموعود .

وإذا كان الحبيب النبي قد كَرَّمَهُ اللهُ بالرسالة ، وهو في الأربعين من عمره ، فإن من بواعث المحبة لحضرته ، أن الله سبحانه لم يجعل الحج مطلقاً ، بل ربطه بالقدرة ، والإستطاعة ﴿ .. مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾^(١)

وبالسلام أتمننا نسك الطواف والزيارة ..

(١) سورة آل عمران : آية ٩٧ .